أسواق العرب وأثرها في اللغة والادب

الدكتور عمر حامد ملا حويش
كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية

مقـــدمة

كانت مناطق الجزيرة العربية غير متساوية الخصائص والمرافق ، فبينما نجد مناطق نجدٍ ارضا قاحلة رملية ، نجـد مزارع اليمن تفيض بالخيرات . وكذلك الحال في مكة فهي قاحلة مجدبة لا نبت فيها ، قال تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام: «ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم »[1] ، ولكن حين تتحول من مكة الى الطائف نجد فيها بساتين النخيل والاعناب . قال الألوسي :

واما اهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجاراتهم كثيرة ومعايشهم وافرة لما في بلادهم من الخصب والرخاء والذخائر المتنوعة والمعادن الجيدة وغير ذلك من اسباب الثروة والغنى . واما اهل نجد فكانوا دون غيرهم من الثروة والتجارة لمـــا ان الغالب على ارضهم الرمال فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب في رفاهية العيش ورواج التجـــارة [2] .

فلا بد والحالة هذه ان تكون التجارة من اول اسباب المعاش لسكان الجزيرة العربية ، فعكفوا عليها واخذوا يضربون في الارض يبتغون من هذه المهنة . فعرفوا قبل الاسلام كثيرا من المدن والاقطار ، فقد رووا ان نفرا من بني مـــالك اجمعوا الى الوفود على المقوقس وحملوا له الهدايا[3] .

وكانت مكة مركزا تجاريا كبيرا بحكم قدسيتها ومركزها الديني والتجارة مهنة اساسية لابناء المجتمع المكي ، فكانت النظرة المادية تملك عقول الكثيرين منهم فلا يفكرون بسوى البيع والشراء والربح والخسارة ، حتى روى عن بعضهم انهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يستوحي ربهم فيخبرهم باثمان السلع حين ترخص فيشترونها ثم يبيعونها حين تغلو ليكون ذلك شاهدا على صدق نبوة محمد . فنزل قوله تعالى : « قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون »(٤) .

ومما يدل على اهتمام العرب بالتجارة استعمال القرآن الكريم لها في التشويق للايمان بالله والدخول في الاسلام ، قال تعالى : « هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله »(٥) .

وفي مجتمع تجاري كهذا لا بد ان تنتشر فيه اسواق البيع والشراء وما يتبع ذلك من امور تجارية واجتماعية كنتيجة حتمية لكل تجمع يستمر عدة ايام يضم اخلاطا من الناس من مختلف قبائل العرب ، كما سنرى من خلال بحثنا هذا . ولذلك آثرنا ان نقدم للقارىء الكريم عرضا خفيفا لاهم هذه الاسواق يتناول موقعها الجغرافي ومواسم عقدها وما يفد اليها من قبائل العرب وغير العرب بقدر ما اسعفتنا به المصادر التي بين ايدينا .

اسواق العرب في الجاهلية

كان للعرب في الجاهلية اسواق كثيرة يقيمونها في مواسم معينة ، ينتقلون من بعضها الى بعض . وقد اشتهر من بين هذه الاسواق :

سوق المشقر :

وهي حصن في البحرين كان فيها سوق للعرب تقوم من اول يوم

جمادي الآخرة . والمشقر حصن لعبدالقيس وثيق البنيان ، نسب بناؤه الى سليمان ، ويضرب به المثل في المنعة والاحكام ، قال المخبّل :

فلئن بنيت لي المشقر في
صعب تقصّر دون العصم
لتنقبن عني المنية !
ن الله ليس كعلمه علم

كما ذكره الاعشى ، فقال :

فان تمنعوا عنا المشقر والصفا فانا وجدنا الخط جما نخيلها

وذكره ايضا ابو ذوءيب الهذلي في مرثيته لابنه :

حتى كأني للحوادث مروة بصفا المشقر كل يوم تقرع

وكان يقصد هذه السوق اخلاط من جميع احياء العرب واهل فارس لخصب ارضها .

سوق دومة الجندل :

وتقع في نقطة متوسطة بين الشام والخليج العربي والمدينة على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة ولعلها تقع قرب الكوفة[٦] .

كانت قبائل العرب في الجاهلية تنزل هذه السوق في اول يوم من شهر ربيع الاول . ويجاور هذه السوق من قبائل العرب قبيلتا كلب وجديلة طيء . وكانت كلب اكثر العرب قنا فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت من شعر يجعلون فيها عبيدهم واماءهم . وكانوا — على عادة بعض العرب — يكرهون فيها بناتهم على البغاء وقد حرم الاسلام هذه العادة القبيحة ، فقال تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا »[٧] ؛ فتنزه العرب عن دنس التجارة .

وتعتبر هذه السوق من اسواق العرب الكبرى تأتيها العرب من اطراف الشام ومن العراق وسائر انحاء الجزيرة رغم وعورة الطريق

والتعرض للاخطار وفقدان الامن ، والذي يحملهم على ركوب ذلك ما يصيبون من ارباح في هذه السوق .

وقد دخلت هذه السوق تاريخ المسلمين لانها كانت ملتقى الحكمين عمرو بن العاص ، وابي موسى الاشعري .

سوق هجر :

وتقع هذه السوق في البحرين جنوب الخليج العربي ، وكان لهذه السوق شأن عظيم بحكم موقعها واتصالها ببلاد الهند وفارس وربما طغت شهرتها على شهرة سوق دومة الجندل . لان الوافد اليها يجد فيها اصناف التجارات بالاضافة الى جودة تمرها الذي اشتهرت به ، وكان لكسرى نفوذ على هذه السوق فكانت قوافله تحمل الطيب والجواهر . وحدث مرة ان اغار بنو تميم على قافلة لكسرى فيها مسك وعنبر وجوهر فأرسل جيشا اوقع بهم فأخذ الاموال وسبى الذرارى بمدينة هجر ، وسميت تلك الوقعة (يوم الصفقة)[٨] .

وكانت العرب تقصد هذه السوق بعد انفضاضهم من سوق دومة الجندل ، فاذا أهلّ ربيع الآخر انتقلوا اليها فقامت سوقها .

سوق عمان :

وتقع هذه السوق في جنوب الخليج العربي تمتد على سواحل بحر اليمن . وقد استتبع مركز عمان هذا كثرة الاعاجم فيها واختلاط اهلها بهم حتى ادخل ذلك الضيم على لغتهم فلم يعرفوا في العرب بالفصاحة . ولما رأى ابو عمرو بن العلاء اعرابيا من عمان فصيحا لم يكتم استغرابه به من حسن وصفه لبلده وفصاحة منطقه حتى عرف ان الاعرابي بعيد عن مراكز الاختلاط تلك . فقد ذكر القالي في اماليه :

قال ابو علي : وحدثنا ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال حدثنا ابو حاتم عن الاصمعي عن ابي عمرو بن العلاء قال : لقيت

اعرابيا بمكة ، فقلت له ممن أنت ؟ قال : اسدي قلت ومن ايهم ؟ قال : نهدي ، قلت من اي البلاد ؟ قال : من عمان ، قلت : فأنى لك هـذه الفصاحة ؟ قال : انا سكنا قطرا لا نسمع فيه ناجخة التيار[٩] ، قلت : صف لي ارضك[١٠] ... وراح الاعرابي يصف لابي عمرو بن العلاء ارضه بلغة فصيحة . يدلنا هذا النص على ان اللغويين كانوا يتحرجون كثيرا من لغة من كانت بلاده مقصد اخلاط من الناس من غير العـرب فتخالط لغتهم شائبة أعجمية .

وتقصد العرب هذه السوق اذا انتهت من سوق هجر فترحل الى عمان وتقيم سوقها حتى آخر جمادى الاولـى ، وهي بتوسطها بين فارس والهند والحبشة تجتمع فيها بضائع هذه الممالك الثلاث .

سوق حباشة :

تقوم هذه السوق بتهامة على ست ليال من مكة الى جهة اليمن . فهي المتجر المتوسط المشترك بين الحجـاز واليمن ، واصل الحبش الجمع ، والحباشة الجمع من الناس ليسوا من جنس واحد ، ولعلهـا سميت بذلك لكثرة ما يجتمع بها من مختلف القبائل والاجانب للتجارة . وقد تاجر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم .

سوق صحار :

وهي من المناطق الواقعة على ساحل الخليج العربي وبحكم موقعها يؤمها كثير من التجار ، وهي سوق تجارية لا نصيب للناحية الادبيـة فيهـا[١١] .

وتقيم العرب هذه السوق من عاشر رجب الى الخامس عشر منه ، بعد انفضاض سوق حباشة .

سوق دبي :

وهي من اسواق العرب بعمان وصفها ياقوت بقوله : دبي سوق

من اسواق العرب بعمان وهي مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في ايام العرب واخبارها واشعارها ، وكانت قديما قصبة عمان . ولعل هذه السوق المذكورة كانت عندها . فتحها المسلمون ايام ابي بكر عنوة سنة ١١ هـ[١٢] . وتقوم سوقها آخر يوم من رجب .

وتوجد اسواق اخرى هي غير التي تكلمنا عنها مثل سوق الشحر ، وسوق عدن ، وسوق صنعاء وسوق حضرموت وهي اسواق تجارية فقط لا نصيب للناحية الاداريةفيها حتى ولا للنواحي الاجتماعية الاخرى ولذلك آثرنا تجاوزها لننتقل الى سوق عكاظ .

سوق عكاظ :

وعكاظ نخل في واد بين مكة والطائف ، وهي اهم اسواقهم لانها متوجههم الى الحج فهي مشهد القبائل كلها ، اتخذت سوقا بعد عام الفيل بخمسة عشر سنة اي سنة ٥٤٠م ثم بقيت في الاسلام وهي السوق التجارية الكبرى لعامة اهل الجزيرة يحمل اليها من كل بلد تجارته وصناعته كما يحمل اليها ادبه . وتنفرد سوق عكاظ باشياء خلت اسواق العرب الاخرى منها وهي ان ملوك اليمن وفارس كانوا يبعثون الى هذه السوق بالسيف الجيد والحلة الحسنة ينادون عليها ليأخذها أعز العرب يريدون بذلك معرفة الشريف السيد فيدعى بالوفادة على ذلك الملك ليحسن صلته وجائزته ليكونوا اعوانا له في اعزاز ملكه وحمايته من العرب[١٤] .

ويختلفون في موعد قيام هذه السوق فمنهم من جعلها في ذي القعدة ومنهم جعل موعد عقدها في شوال ، واقرب الاقوال انها تعقد في اول ذي القعدة وتستمر حتى العشرين منه[١٥] .

ومن القبائل التي تحضر هذه السوق قريش وهوازن وغطفان وخزاعة والاحابيش وبني المصطلق وطوائف من افناء العرب[١٦] ، كما يؤمها من العراق والبحرين واليمامة وعمان والشحر واليمن وسائر

اطراف الجزيرة • فهي عامة حتى انه ليس فيها مكّاس ولا عشّار لانه لم تكن في ملك احد الامراء كما هو الشأن في بقية الاسواق • وقربها من مكة ومشاعر الحج البسها حرمة تقف دونها مطامع المتنفذين •

تلك بعض مظاهر عكاظ التجارية اما فيما يخص الناحية الادبية والتي هي هدفنا من هذا البحث فسنعرض اليها بعد الفراغ من عرض بقية الاسواق الاخرى •

سوق مجنة :

مجنة موضع قرب مكة جميل فيه مياه يتغنى به على ما يبدو فالذي يبعد عن مكة ثم يتشوق اليها تكون مجنة من بعض ما يذكر ، روى عن بلال انه حين هاجر الى المدينة وتشوق الى مكة قال :

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بفخ وحولي اذخر وجليل
وهل اردن يوما مياه مجنة
وهل يبدون لي شامة وطفيل[١٧]

وكانت تقوم هذه السوق في العشر الاخير من ذي القعدة بعد انتهائهم من سوق عكاظ ينتقلون الى مجنة ليتمموا فيها تجارتهم وما يتبع ذلك مما كان يجري في عكاظ فهي لا تقل شأنا عن غيرها من اسواق العرب ، قال الهذلي :

سلافة راح ضمنتها اداوة
مقيّرة ردف لمؤخرة الرحل
تزودها من اهل مصر وغزة
على جسرة مرفوعة الذيل والكفل[١٨]
فوافي بها عسفان ثم اتى بها
مجنة تصفو في القلال ولا تغلي

فروحهـــا من ذي المجـاز عشـية
يبادر اولى السابقات الى الحبل[١٩]

سوق ذي المجاز :

وهي موضع قرب مكة ، وسمي بهذا الاسم لان اجازة الحـاج كانت منه[٢٠] ، والموضع من ديار هذيل فهم اهلها وجيرانها وهي من اسواقهم الكبرى ولذلك كثر ورود ذي المجاز في شعرهم كما رأينـا قبل قليل ، وقال الليثي :

للغانيات بذي المجاز رسوم في بطن مكة عهدهن قديم[٢١]

تقوم هذه السوق بعد الانتهاء من مجنة وحين يهل شهر ذي الحجة سار الناس الى هذه السوق وأقاموا فيها حتى الثامن من ذي الحجة ، ولذلك فان ذي المجاز تحفل بجموع العرب وتجـــارهم ، وهي تلي عكاظ في اهميتها لموقعها ولقيامها في موسم الحج . وعكاظ ومجنـة وذي المجاز تعتبر من المناطق الحرام اذ لا يـــدخلونها الا محرمين . وكانت قريش وغيرها من العرب تقول : لا تحضروا سوق عكـــاظ ومجنة وذي المجاز الا محرمين بالحج[٢٢] .

وهناك اسواق غير ما ذكرنا كان لبعضها من الاهمية ما كـــان للاسواق التي مر ذكرها آثرنا ارشاد القاريء الكريم الى مصادر[٢٣] الكلام عنها مخافة التطويل لننتقل الى ما كان للعرب من اسواق بعد الاسلام .

لقد طرأ على المجتمع العربي تغيير واضح بعد الاسلام فقـــد استقر العرب بعد الفتح الاسلامي وسكنوا المدن من بلاد الشـــام والعراق ومصر . كما انشئت مدن جديدة كان لها شأنهـــا في الفكر والتجارة كالبصرة والكوفة وبغداد والقيروان في الاندلس . فاستغنت كل مدينة باسواقها الدائمة عن الاسواق الموسمية التي لم يعد لهـــا تلك الأهمية ، وما أن حل القرن الثاني الهجري حتى رسـخت اقدام

التجارة في المدن والثغور فاضمحلت الاسواق التي كانت في العصر الجاهلي • ولكن سوقا واحدة نشأت بعد الاسلام استطاعت أن تحتفظ بكثير من خصائص اسواق العصر الجاهلي مضافا اليها ما فرضته الحضارة الجديدة واقتضتها حاجات المجتمع المتمدن ، وهذه السوق هي مربد البصرة •

سوق المربد :

نزلت العرب البصرة سنة اربع عشرة ومصرتها سنة سبع عشرة بامر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢٤] • وكان المربد على الجهة الغربية من البصرة •

ومربد البصرة هذا متسع للابل تربد فيه للبيع وكان في الاصل سوقا للابل حتى اذا كان عهد الامويين صار سوقا عامة تتخذ فيه المجالس ويخرج اليها الناس كل يوم فهو معرض لكل قبيلة ومجتمع العرب ومتنزه البصريين يؤمه منهم من عاف رخاوة المدن[٢٥] ، وما زال يعلو شأنه وتستجيب له اسباب الكمال حتى اشتد ولوع الناس به وارتيادهم له فكان سوق تجارة وادب وسياسة • قال القلقشندي :

وخلف عكاظ في هذا المعنى الادبي بعد الاسلام مربد البصرة وهو من اشهر محالها ••• به كانت مفاخرات الاشراف ومجالس الخطباء يتوافدون اليه ساعة من نهار للحديث والمناشدة والمفاخرة ويجتمع اليه الناس فيهدر الشعراء ويخطب الخطباء ويتكلم العلماء ولهم فيها مقامات مأثورة ومواقف مشهورة ••• ولا يعرف لهم من اسواق الكلام غير المربد وعكاظ[٢٦] •

وبعد هذا العرض السريع لاهم اسواق العرب تناولنا فيه موقع هذه الاسواق ومواسمها واهميتها التجارية ننتقل الى الكلام عما كان يجري في هذه لاسواق من امور بعيدة عن الناحية المادية •

لقد كانت اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ميدانا فسيحا

لمختلف المجالات بالاضافة الى الناحية التجارية . كان يقصدها اخلاط من الناس فكانت هذه الاسواق مسرحا مفتوحا لتبادل الاراء وعرض الافكار والتشاور في مشكلات الامور ، ومجالا للمفاخرات والمنافرات والمحاورات ومعرضا لاذاعة مفاخر القبيلة ومنبرا تلقى فيه روائع الشعر، وميدانا يتبارى فيه رواد الفصاحة والبلاغة والبيان .

كما كانت هذه الاسواق منبرا للخطابة فيقف اشراف القبائل مفاخرين بمناقبهم ومآثرهم(٢٧) .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يحضر هذه الاسواق ليبشر بدعوته ويدعو الناس لتوحيد الله ونبذ عبادة الاصنام ، فقد ذكر ابن سعد في طبقاته ما نصه : في رواية عن عاصم بن عمر بن قتادة ويزيد بن رومان وغيرهم قالوا : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث سنين من اول نبوته مستخفيا ، ثم اعلن في الرابعة فدعا الناس الى الاسلام عشر سنين يوافي المواسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز يدعوهم الى ان يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة فلا يجد احدا ينصره ولا يجيبه .. الخ(٢٨) .

وكان النقاد والشعراء والرواة يجتمعون في هذه الاسواق فينشد الشعراء وينقد النقاد ويذيع الرواة ما سمعوه في كل مكان . وكان النابغة الذبياني حكم الشعراء في سوق عكاظ ، كانت تضرب له فيه قبة من جلد فتأتيه الشعراء ينشدونه قصائدهم فيحكم لبعضهم على الآخرين(٢٩) .

ومن المشاهد التي كانت بين النابغة والشعراء في سوق عكاظ كما تناقلتها كتب الادب ان الاعشى انشده مرة ، ثم انشده حسان بن ثابت ثم شعراء من بعده ثم انشدت الخنساء قصيدتها في رثاء اخيها صخر التي منها :

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فأعجب النابغة بالقصيدة وقال لها : لولا ان ابا بصير ـ يعني

الاعشى ـ انشدني لقلت انك اشعر الجن والانس . فكان الاعشى ـ برأي النابغة ـ اشعر الذين انشدوا النابغة ، والخنساء تليه منزلة في جودة الشعر . ولكن حسان لم يذعن لحكم النابغة هذا الذي تجاهله فيه ، فقام حسان فقال والله لانا اشعر منك ومن ابيك . فقال له النابغة : يا ابن اخي انك لا تحسن ان تقول :

فانك كالليل الذي هو مدركي
وان خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينة
تمد بها ايد اليك نوازع

قال : فخنس حسان لقوله[٣٠] .

وفي عكاظ ايضا وقف قس بن ساعدة الايادي وقال خطبته المشهورة ، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : رأيته بسوق عكاظ على جمل احمر وهو يقول : ايها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا . من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت الى ان قال:

في الذاهبين الاولين
من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها
يمضي الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي ولا
يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا
لة حيث صار القوم صائر[٣١]

وقد علق الجاحظ على رواية الرسول صلى الله عليه وسلم لخطبة قس وثنائه عليه فقال : « ولاياد وتميم خصلة ليست لاحد من العرب،

لان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته . وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه . وهذا اسناد تعجز عنه الاماني وتنقطع دونه الآمال . وانما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد ، ولاظهاره معنى الاخلاص وايمانه بالبعث . ولذلك كان خطيب العرب قاطبة »[٣٢] .

وما كان لعكاظ في الجاهلية من الاهمية الادبية كان للمربد في البصرة ايضا بعد الاسلام ، بل فاق المربد عكاظ في الناحية الادبية واللغوية ، لما بين عكاظ والمربد من فروق زمنية ومكانية .

كان عكاظ قرب مكة في وسط الجزيرة العربية يفد اليها اشراف العرب وفصحاؤها .

اما بالنسبة للمربد فكان على العكس من ذلك ، لان المربد يقع في طرف الجزيرة العربية على الخليج العربي قريبا من ديار الفرس مما يسّر اختلاط العرب بغيرهم . ومما زاد في هذا الاختلاط انتشار الاسلام في البلاد المفتوحة . فتطرقت العجمة الى لغتهم وفشا اللحن في مجالسهم في الوقت الذي نشط فيه الرواة واللغويون لجمع اللغة من فصحاء الاعراب الذين كانوا يفدون الى سوق المربد. وهذه ظاهرة جديدة لم يكن لعكاظ عهد بها .

فهذا عمرو بن العلاء يسأل الاصمعي من اين اقبلت ؟ فيجيبه جئت من المربد ، فيقول هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت في الواحي فمرت به ستة احرف لم يعرفها فخرج يعدو في الدرجة وقال شمرت في الغريب ، أي غلبتني[٣٣] .

وكان المربد مركزا للمهاجاة بين جرير والاخطل والفرزدق ،وانتج ذلك نوعا من اقوى الشعر الهجائي كالذي نقرؤه في النقائض ، وكان لكل من هؤلاء الشعراء حلقة ينشد فيها شعره ، وحوله الناس يسمعون[٣٤] . من ذلك ما ورد في النقائض ما نصه : « كان الفرزدق

ينشد في المربد في حلة على بغلته ، فقدم جرير فنزل على امرأة من ربيعه فأخبرته بامر الفرزدق وكيف ينشد وبلباسه . فاستعار جرير درعا وبيضة وتقلد سيفا وركب فرسا واتى المربد فأقبل الفرزدق على بغلته وعليه حلته وانشد جرير فمال الناس مع الفرزدق وذلك أنه قال حين رآه :

عجبت لراعي الضأن في حطميـــة
وفي الدرع عبد قد اصيبت مقاتلـه
أفاخ والقى الدرع عنـــه ولم أكن
لالقي درعـــي من كمي أقـــاتله
وقد تلبس الحبلى السلاح وبطنهـا
اذا انتطقـــت عبوء ثقيل تعـــادله

فقال جرير :

لبست ســـلاحي والفرزدق لعبـة
عليـــه وشاحا كرّج وجـــلاجله
أعـدوا مع الحلي الملاب فانمـــا
جرير لكم بعل واتتـم حـلائله[٣٥]

وهي من قصيدة طويلة مثبتة في ديوانه[٣٦] .

ومن المشاهد التي كان المربد مسرحها الفصل في الخصومات بين القبائل . فحدث ان قتل بعض بني مسـعود بن عمرو العتكي فنهض اخوه زياد بن عمرو ليثأر له فحشـــد الحشود في المربد ثم بلغ ذلك الاحنف بن قيس سيد بني تميم فندب اصحابه فجاءه حارثة بن بـدر الفداني وقد اجتمعت بنو تميم فقال حارثة بن بدر :

سيكفيك عبس اخو كهمـس
مقـــارعة الازد بالمربـــد
وتكفيـك عمرو على رسـلها
لكيز بن افعـى وما عـددوا

وتكفيـك بكرا اذا اقبلـت

بضـرب يشيب لـــه الامرد

فاجتمع القوم ـ بعد مفاوضات وعروض ـ على ان يقفوا امـر مسعود ويغمد السيف ويودى سائر القتلى من الازد وربيعة • فضمن ذلك الاحنف ودفع اياس بن قتاده المجاشعي رهينة حتى يؤدي هـذا المال فرضى به القوم ففخر بذلك الفرزدق فقال :

ومنا الذي اعطى يـــديه رهينـة

لغارى معد يوم ضـرب الجمـاجم

عشـية سال المربدان كلاهمـــا

عجاجـــة موت بالسيوف الصوارم

هنالك لـو تبغي كليبـاً وجـــدتها

أذل من القردان تحت المناسـم[٣٧]

وتقدم الزمن فظهرت علوم جديدة لتزاحم الشـــعر والادب ، وفشى اللحن بين الموالي الذين دخلوا الاسلام فأفســدوا على العرب لغتهم •

وصار الشعراء يقصدون المربد لا ليتهاجوا ولا ليتفاخروا ، ولكن ليأخذوا عن الاعراب الملكة الشعرية فيخرج الى المربد بشار وابـــو نواس ، ويخرج الى المربد اللغويون ليأخـذوا عن اهلـــه ويدونوا ما يسمعون[٣٨] •

والنحويين يخرجون الى المربد يسمعون من اهلـــه ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم فقد اشتد الخلاف بين مـدرسة البصـــرة ومدرسة الكوفة في النحو ، وكان اهم مدد لمدرسة البصرة هو المربد، وفي تراجم النحاة نجد كثيرا منهم كان يذهب الى المربد يأخـــذ عن أهله • ويخرج الادباء الى المربد يأخذون الادب من جمل بليغة وشعر رصين وامثال وحكم مما خلفه عرب البادية وتوارثوه عن آبائهـم • قال ياقوت :

ان الجاحظ اخذ النحو عن الاخفش ، واخذ الكلام عن النظام ، وتلقف الفصاحة من العرب شافاها بالمربد(٣٩) .

وبعد هذ الجولة بين اسواق العرب التي اطلعتنا على بعض ما كان يجري فيها ، نأتي لنتبين الغرض الذي نقصده وهو :

اثر هذه الاسواق في اللغة والادب :

لقد كان هذا الميدان الادبي الفسيح بما فيه من آذان مرهفة وعيون متطلعة واذواق حصيفة تحمل الشعراء والخطباء على التجويد والتهذيب والتنقيح كما تدعوهم الى تخير الالفاظ العذبة والاساليب الجميلة والمعاني الرائعة قصدا الى الوضوح والافهام والامتاع ومن ورائهم الرواة يذيعون هذا الادب المختار في البلاد وينشرونه في القبائل ويروونه في كل مكان للسامعين . هذا من الناحية الادبية .

اما من الناحية اللغوية فان للاسواق عملا لغويا خطيرا لا يقل اهمية عن عملها الادبي فقد كانت الاسواق سببا للتقريب بين لهجات العرب .

كانت تفد الى هذه الاسواق شتى القبائل من قحطانيين وعدنانيين، كما كان ملك الحيرة يبعث بتجارته اليها ويأتيها التجار من مصر والشام والعراق

فكان هذا الاجتماع الكبير خير وسيلة للتفاهم اللغوي والتقارب بين اللهجات العربية . وكانت الاذواق المرهفة في هذه الاسواق تعمل عملها في النقد الادبي فتأخذ كل قبيلة من لغة الاخرى ما خف على النطق وعذب في اللسن وظهرت فصاحته من مختلف الالفاظ والاساليب .

وكان القريشيون من اكثر قبائل العرب ميلا الى النقد اللغوي فاقتبسوا من لهجات القبائل اعذبها ومن الفاظهم اسهلها وانصعها وانصعها فزادت بهذا ثروة اللغة العدنانية القرشية . وقلدت القبائل

الاخرى قريشا في ذلك واخذت عنها محاكية لها في لغتهـا واساليبها ، وذلك لمكانة قريش الدينية مما حدا بالشعراء الذين يريدون لشعرهم الذيوع أن يتحروا لهجتها المختارة في اذاعة محامد قبائلهم وامجادهم فكان لذلك آثاره البعيدة في تهذيب اللغة العربية وتوحيدها وجمعهـا في لغة مختارة هي لغة قريش والتي بها نزل القرآن الكريم فزادهـا شرفا على شرف .

وقد كان لتهذيب اللغة العربية والتقريب بين لهجات العرب اثـر بعيد في نمو اللغة العربية ونهضتها وانتقالها من طور اللهجات المتباينة واللغات المتنافرة الى طور جديد مهد للوحدة اللغوية بين قبائل العرب والتى نزل القرآن الكريم مؤيدا لها ومذيعا للغة قريش في كل مكان .

هكذا كانت الاسواق العربية في الجاهلية والاسـلام ذات اثر خطير في تهذيب اللغة وتوحيد لهجاتها ونهضة الادب وتجويده ونشـر الشعر وترديده . كما كانت نواة حية لنشأة النقد الادبي ومهدا لنموه على نحو ما رأينا في عكاظ والمربد وسائر الاسواق الاخرى التي كان يقصدها المفاخر بالنسب والمتبجح بالفصاحة واللسن ، والمحزون الذي يجد فيها متنفسا للواعجه . كان كل هذا الى جانب حركتها الاقتصادية .

(١) سورة ابراهيم آية : ٣٧ .
(٢) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، الآلوسي ٣٨٧/٣ .
(٣) طبقات ابن سعد ، ص٢٥ القسم الثاني من المجلد الرابع .
(٤) سورة الاعراف آية : ١٨٨ .
(٥) تفسير الرازي ٣٢٨/٤ .
(٦) الاغاني ٢٦٦/١٠ حاشية ، العقد الفريد ٢٦٤/١ حاشية .
(٧) سورة النور آية : ٣٣ .
(٨) وفيه ان كسرى كان قد اوقع ببني تميم فاخذ الاموال وسبى الذراري بمدينة هجر وذلك انهم اغاروا على لطيمة فيهـــا مسك وعنبر وجوهر فسميت الوقعة يوم الصفقة . العقد الفريد ٢٢٤/٥ .
(٩) ناجخة التيار : صوت الموج (القاموس المحيط) .
(١٠) الامالي ، ١٦/٣ .
(١١) اسواق العرب ، ص٢٦٣ .
(١٢) نفس المصدر .
(١٣) اسواق العرب ص ٢٨١ والنص منقول عن مخطوطة بـدار الكتب الظاهرية باسم : مثير العزم الساكن في فضائل البقاع والاماكن لابن الجوزي تحت رقم (ادب ٤٦) الكراس الخامس عشر .

(١٤) اسواق العرب ص ٢٨١ والنص منقول عن مخطوطة بـدار الكتب الظاهرية باسم مثير العزم الساكن في فضائل البقاع والامـــاكن لابن الجوزي تحت رقم (ادب ٤٦) الكراس الخامس عشر .
(١٥) اسواق العرب ص٢٩٠ .
(١٦) نفس المصدر .
(١٧) نفس المصدر .
(١٨) ويروى بصرى .

(١٩) مرفوعة الذيل : يريد بها ناقة مشمرة ، وجسرة جسيمـة ماضية ، عسفان : موضع قرب مكة ، فروحها : يريد راح بها . (ديوان الهذليين ٤٠/١) .
(٢٠) فتوح البلدان ص ٣٤١ .
(٢١) اسواق العرب ص ٤٠٨ .
(٢٢) نهاية الارب في معرفة انساب العرب . القلقشندي ص ٨٩ حاشية . ط.مصر ١٩٥٩ وضحى الاسلام ٨١/٢ .

(٢٣) بلوغ الارب للالوسي ، اسواق العرب لسعيد الافغـــاني ، اخبار مكة للازرقي .

(٢٤) فتوح البلدان ص ٣٤١ .

(٢٥) اسواق العرب ص ٤٠٨ .

(٢٦) نهاية الارب في معرفة انساب العرب ص ٨٩ حاشية .

(٢٧) تاريخ آداب العرب ١/٨٧-٩٠ ، وبلوغ الارب للالوســـي ١/٤٦٤ ، وتاريخ النقد الادبي عند العرب ص ١١ وما بعدها .

(٢٨) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١٤٥ و ١٤٦ .

(٢٩) الاغاني ١١/٦ ، والموشح للمرزباني ص٨٢ .

(٣٠) الاغاني ١١/٦ وما بعدها .

(٣١) البيان والتبيين ١/٣٠٨-٣٠٩ .

(٣٢) نفس المصدر ١/٥٢ .

(٣٣) النوادر ، للقالي ص١٨٢ .

(٣٤) التنبيه على اوهام ابي علي في اماليـه . البكري ص١٢١ ، الاغاني ٣/٢٥٧ ، ضحى الاسلام ٢/٨٠-٨١ .

(٣٥) النقائض ص ٣٢٠ .

(٣٦) ديوان جرير ص ٣٨٢ .

(٣٧) الكامل للمبرد ١/١٤٠-١٤٢ .

(٣٨) انظر النص المنقول عـن امالي القالي في ص ٣٨٤ مـن هذا البحث .

(٣٩) معجم الادباء ١٦/٧٥ ، وضحى الاسلام ٢/٨٢ .

المصادر والمراجع

١ ـ اسواق العرب في الجاهلية والاسلام . سعيد الافغاني ط دار الفكر بدمشق .

٢ ـ الاغاني . ابو الفرج الاصفهاني ط دار الكتب المصرية نسخة مصورة .

٣ ـ الامالي . ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي ط بيروت بدون تاريخ .

٤ ـ بلوغ الارب في معرفة احوال العرب . الآلوسي ط مصر ١٣٤٢ .

٥ ـ البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون ط مصر سنة ١٣٨٨/١٩٦٨ .

٦ ـ تاريخ اداب العرب . الرافعي .

٧ ـ تاريخ النقد الادبي عند العرب . احمد ابراهيم .

٨ ـ التفسير الكبير . فخر الدين الرازي ط مصر سنة ١٩٣٢ .

٩ ـ التنبيه على اوهام ابي علي في اماليه . ابو عبدالله بن عبدالعزيز البكري ط بيروت بدون تاريخ .

١٠ـ ديوان جرير . الصاوي ط دار الاندلس بيروت بدون تاريخ .

١١ـ ديوان الهذليين ط دار الكتب .

١٢ـ ضحى الاسلام . احمد امين ط مصر سنة ١٣٥٢/١٩٣٥ .

١٣ـ الطبقات الكبير . ابن سعد ط ليدن سنة ١٣٢٢ .

١٤ـ العقد الفريد . ابن عبد ربه ط مصر سنة ١٣٨٤/١٩٦٥ .

١٥ـ فتوح البلدان . البلاذري ط مصر سنة ١٣٥٠/١٩٣٢ .

١٦ـ القاموس المحيط . الفيروز ابادي .

١٧ـ الكامل . المبرد ط مصر سنة ١٣٧٦/١٩٥٦ .

١٨ـ معجم الادباء . ياقوت الحموي ط دار المأمون سنة ١٩٥٧/١٩٣٨ .

١٩ـ الموشح . المرزباني ط مصر سنة ١٩٦٥ .

٢٠ـ النقائض . ابو عبيدة معمر بن المثنى ط ليدن سنة ١٩٠٥ .

٢١ـ نهاية الارب في معرفة انساب العرب . القلقشندي ط مصر سنة ١٩٥٩ .

٢٢ـ النوادر . ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي ط بيروت بدون تاريخ .

★ ★